Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi
34

ابن سبعين وفلسفته الصوفية

دكتور
أبو الوفا الغنيمي التفتازاني

استاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

7083
297.7
TEF.
Tasnif No. :

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٣

الإهداء

إلى
روح أستاذي الجليل الدكتور محمد مصطفى حلمي

ا.غ.ت

تصدير

للأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور

لقد كان أحق مني بهذا التصدير زميل قديم، وراحل كريم ، هو المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي . كان أوثق مني صلة بالتصوف الإسلامي ورجاله ، وأكثر إلفاً للغتهم وأساليبهم ، وأعرف بآرائهم ونظرياتهم . عاش معهم نحو ثلث قرن او يزيد ، ووقف جل نشاطه على حياتهم وطرقهم ومذاهبهم . وهذا الكتاب الذي نقدم له ثمرة من ثمار درسه ، وجه اليه وأسهم فيه . ونعتقد أن في نشره إحياء لذكراه ، وتخليداً لشيء من آثاره .

وقدر لي أثناء الطلب أن أقف عند ابن سبعين ، وفكرت فعلاً في أن أتخذ منه موضوعاً لرسالة الدكتوراه أتقدم بها الى السربون بجامعة باريس ، ولعلي اتجهت الى ذلك قبل أن يولد باحثنا . وكان « للرسائل الصقلية » حين ذاك ، وهي لا تزال مخطوطة ، صدى ملحوظ ، اكتشفها آمري في نصف القرن الماضي ، وألقى عليها مِهْرن في أخرياته كثيراً من الضوء ، وشغل بها ماسينيون في الثلث الأول من هذا القرن ، وكانت له عناية خاصة بابن سبعين وآرائه . ولا شك في أن لهذه الرسائل شأناً في تاريخ التبادل الثقافي بين

أوروبا والعالم الإسلامي إبان القرون الوسطى ، فيها اعتراف بسبق مفكري الإسلام ، ورغبة صادقة في الإفادة من علمهم وفلسفتهم . وتشهد أيضاً على مدى فهم ابن سبعين لأرسطو ، وتعبّر عن شخصيته واستقلال رأيه ، وتشير الى جوانب من تفكيره ، وإن كانت لا تعطي صورة كاملة لمذهبه .

وابن سبعين ثالث ثلاثة هم شيوخ الصوفية الفلاسفة ، الذين عبّروا عن التصوف الفلسفي في الإسلام أدق تعبير ، وهم السهروردي (١١٩٠) ، وابن عربي (١٢٤٠) ، وابن سبعين (١٢٧٠) . تعاقبوا ، وعاصر ثانيهم سابقه وإن لم يتصل بـه اتصالاً مباشراً ، عرفوا بسعة الاطلاع وغزارة المادة ، والإحاطة بالثقافات القديمة الغربية والشرقية ، ومحاولة مزجها بالثقافة الإسلامية . وكانت لهم آراء لا تخلو من غموض وغرابة ، فأثارت ما أثارت من هجوم وحملات . أقول إنهم فلاسفة ، لأنهم أحاطوا بالفلسفات القديمة والمعاصرة ، واستخدموها في تكوين مذاهبهم ودعم آرائهم ، ومن بينهم من كان له على كبار الفلاسفة اليونانيين والإسلاميين نقد وتعليق لا يخلو من عمق وطرافة . ولكنهم أساساً صوفية يشغلهم أولاً حديث النفس ومناجاتها ، ويعنيهم تطهيرها وصفاؤها ، ويسعون جاهدين الى ربطها بعالم الأرواح والملائكة .

وابن سبعين ، دون نزاع ، أقل هؤلاء الثلاثة حظاً من البحث والدرس ، وإن لم يكن دونهم ابتكاراً وأصالة . ملأ الدنيا في حياته ، فنقد من نقد ، وجرّح من جرّح ، وذاع صيته شرقاً وغرباً ، وحاولت أوروبا أن تفيد من علمه ، وأن تنهل من حياضه . ومن المحتمل أن تكون أجوبته على أسئلة صقلية قد ترجمت في حينها الى اللاتينية ، وأن يكون باحثو الغرب قد رددوها فيما بينهم . ثم خفت صوته بعد موته ، ولم يقدر لطريقته السبعينية

شأن يذكر ، ودخل في طي النسيان. ولو لم يكشف عن «الرسائل الصقلية» في منتصف القرن الماضي لامتد جهلنا به ، ولا تزال مؤلفاته مخطوطة ، ولم ينشر منها بعد إلا ما جاء في هذه « الرسائل » . ولم يكتب عنه حتى اليوم إلا شذرات قصيرة ، ويكفي أن أشير الى ان « دائرة المعارف الاسلامية » في طبعتها الاولى ، التي ظهرت في آخر الربع الأول من هذا القرن ، لم تقف عليه إلا بضعة أسطر .

ودراسة ابن سبعين ليست بالأمر الهين ، ذلك لأن قدراً من مؤلفاته عدا عليه الزمن ولا يعرف إلا بالاسم ، وما بقي على أهميته ، موزع بين أركان الدنيا ، ومنه الصحيح والمتحول ، وهو كله لم يرَ النور بعد ، ولا بدّ للباحث المحقق أن يقف عليه . ولغته شاقة ومضنية ، فيها غموض وتعقيد ، رمز وإشارة ، لعب بالألفاظ وخروج بها عن معناها الأصلي ، فتصبح ولها مدلولان أحدهما ظاهر والآخر باطن ، ومن ذا الذي يقوى على كشف هذا الباطن ؟ وقد جارى في ذلك زملاءه المتصوفة الإسلاميين الآخرين ، ولكنه أسرف فيه ، وأغلب الظن أنه قصد إليه برغم ضيق من حوله به . وكان مولعاً بالسحر والكيمياء ، وهما معاً مدعاة الغموض والإبهام ، ويقومان على شيء من أسرار الحروف . وكانت لغته هذه موضع شكوى من قديم ، حتى من الصوفية أنفسهم ، ولعلها كانت سبباً في انصراف الباحثين عنه . وليست آراؤه ونظرياته بأيسر من لغته وأسلوبه ، فهي عميقة ودقيقة الى درجة يعز على الخاصة إدراكها ، ولا سبيل للعامة أن ينفذوا إليها . ونظرية « الوحدة المطلقة » التي تعتبر الهدف الأسمى لفلسفته وتصوفه ليست إلا صورة من مذهب وحدة الوجود ، وهو من أدق المذاهب الفلسفية وأعقدها . لم يرض العقليين ولا النقليين ، لا الفلاسفة ولا رجال الدين . فهو من الناحية الفلسفية

لا يفسر مشكلة التغير ، ولا يسلم بفكرة الزمان ، وينتهي الى أفكار الكون جميعه . ومن الناحية الدينية يقول بآله مطلق مجرّد لا نهائي يعز على عامة المؤمنين إدراكه والتضرع إليه ، ويكاد يقضي على مبدأ الجزاء والمسؤولية مع انه صورة غالية من صور التأليه ، لا ترى إلا الله وتنكر كل ما عداه . وقد أصاب ابن سبعين من شرره ما أصاب غيره من القائلين بوحدة الوجود ، فأتهم بالإلحاد والزندقة ، وحوربت آراؤه وكتبه .

●

وبرغم هـذه الصعاب اضطلع باحثنا بالمهمة ، وأدى الأمانة على وجهها . أعد لموضوعه عدته ، وجمع من مصادره كل ما تيسر له ، وتأنى فيه ما وسعه. عالجه علاجاً محكماً ، وعول في درسه على المنهج التاريخي والمنهج المقارن . واستطاع أن يرسم صورة واضحة وكاملة مـا أمكن لابن سبعين في بيئته الخاصة والعامة ، فعرّف بـه ، وكشف عن مؤلفاته ، وبين أثره ومنزلته . ولم يفته أن يقفنا على أهم كتبه ، وأن يعرض بعض ما ورد فيها ، وفي هـذا ما يوجه النظر إليها ، ويفتح الباب لنشرها ، ولم يقف في الحكم عليه موقف الخصوم ولا الانصار ، بل أنزله منزلته الحقة ، وبين أثره في الشرق والغرب.

وفي القسم الثاني من بحثه ، وهو عمدة الكتاب ، عرض لفلسفة ابن سبعين وتصوفه ، ووقف عندهما طويلاً . فحلل آراءه المنطقية والميتافزيقية ، وفصل القول في آرائـه السيكلوجية والأخلاقية ، وربطها بأصولها الأجنبية والإسلامية . ولم يغفل تصوفه العملي من صوم ودعـاء ، وسفر ومجاهدة ، وخلوة ووحدة ، فأبان عما يتسم به ابن سبعين من الجمع والتوفيق برغم مـا يبدو عليه من تطرف أحياناً . واستعان بالنصوص في توضيح مـا فهم ،

واستخلاص ما انتهى اليه من نتائج ، والنصوص — كما قال بحق — من العلوم الفلسفية بمثابة المشاهدة والتجربة من العلوم الطبيعية . وازن وقارن ، وعلّق وناقش ، والتزم بوجه عام الاعتدال والحيدة .

سبق لي أن قلت ان « ابن سبعين صديق الفلاسفة ، ان لم يعدّ منهم » ، وأظن ان مؤلفنا لا يختلف معي في أن ابن سبعين فيلسوف وصوفي ، برغم نقده لكثير من كبار الفلاسفة والصوفية . ومن ذا الذي سلم من نقـده ؟ ألم ينقد أيضاً المتكلمين والفقهاء ؟ ولعله كان يشير بنقده الى أنـه جاء بجديد ، وان ما قال بـــه لم يسبق إليه ، على أن النقد نفسه سبيل من سبل الأخذ وتبادل الأفكار . قد يكون ابن سبعين فيلسوفاً من طراز خـاص ، ونحن لا ننكر عليه هذا الطراز ، بل من أجله ندعو الى درسه ومعرفة آرائه. ولكن فلسفته تتصل اتصالاً وثيقاً بتصوفه ، هي دعامته والأساس الذي قام عليه ، هي منه بمثابة الوسيلة من الغاية .

في ابن سبعين — ولا شك — اصالة ملحوظة وجرأة نادرة ، وهـمـا معاً أخّاذتان ، وقـد عالجه باحث على مستواه ، وفي نشر بحثه ما يكشف عن شخصية لهـا شأنها في تاريخ الفكر الإسلامي . ونعول عليه في أن يخرج لنا بعض كتب ابن سبعين ، وبخاصة « بدو العارف » ، وقد جمع اصوله وشغل به ، وانا لمنتظرون .

ابراهيم مدكور